نصف خطوة بعيداً عن الجحيم

قصة: الدكتور كاوس قفطان

ترجمة: محمد صابر محمود

(١)

فاه المتداعيتان. كانتا تنفضان عنهما غبار الأجهاد.. إفرازات أخمصية
راء كانت تُلصق قدميه بأديم الشارع.. كان الهواء مصطبغا بنفثات أنفاسه
ة.. أمّا حشود الناس. فقد كانت هي الأخرى تتماوج كبقعة من سنابل
في مهب الريح.

ضع كلمات عليلة اندلقتْ:

عدتم صباحا.

ى هل الوقت نهار، أم هوليل؟!..

تراءى لي الكون مضيئا، لكنما تشوبه العتمة!!.

جوابٌ في برودة الصقيع صادر عن المنخر، تناهى إلى سمعه.

-لاألومه..ربمّا إنّه يخاف من أنْ أبسط إليه يدي بالسؤال.

كرّة أخرى عاود المرور من جانب صاحب الدكان.. يكاد أن يُصاب بمسّ
لجنون لمصّة من دخان سيجارة!!.. ولكن هيهات!!..هل تبلغ به الجرأة
. يطلب ذلك من العم صاحب الدكان؟

-هو الآخر!. ليس لي أن أُعاتبه..هاقد مرّ شهران، أو ربمّا ثلاثة من دون
أمدّ إليه يدي لأناوله فلساً واحداً!!

هاهو ذا يحدّجه بنظرة أحدّ من شفرة الخنجر.. كأنّي متأهب، لكي ينقضّ
، ليفصل رأسه عن جسده، ومن ثم يلتهمه التهاماً، بكلّ ماينتزنٍ من
ب، وشقاء، إذ بتلك الوسيلة وحدها على الأقل يستطيع استرداد ديونه

٥

(٢)

كانتِ السماء ترشُّ سموماً، وجدران الزقاق الملاصقة للبيت الذي يسكن فيه، قد آحدودبتْ، وكأنّها كانت تتحيّن الفرصة كي تنهار عليه، فتدفنه تحت أنقاضها.

-ياويلتي!..لازال ينتظرني ماهو أدهى، وأمرّ!.

باب الدار فغر له شدقيه...

(٢)

كانتِ الغرفةِ فاغرةً فاها، تنبح عليه، وكأنّ بها سُعاراً..ذبالات باصرتي زوجته المنطفئآت انغرزتْ في عينيه المرهقتين، الناضحتين بالألم.

-اليوم كسابقاته أيضاً، لاشيْ.

+ يارجل!، وكأنّي بك تبحث عن اللاشيْ!!..

-فليكنْ.. أين هو ذلك اللاشيْ؟!، فلأعثر عليه أولاً، لكي أحصل من

وراثه على (عانتين[1]).. وهذا الجوع...

+دعِ الجوع جانباً، فقد تعوّدنا عليه.. نحن الآن بحاجة إلى الدواء لولدنا.

-الدواء! الدواء متوفر في الصيدليات، ولكن لقاء نقود!!.

+أليس ثمة من شخص يرقّ قلبه؟!.

-القلب!.. أين هو؟.. وهل بقي ثمّة من قلبٍ يخفق بالرحمة؟!.

+وماذا عن مصير ابننا؟.. لن يبقى أمامه غير الموت!!.

-لاشك.. لم يبق أمامه غيره.

التصقتْ أصابعه المتشنّجة شيئاً، فشيئاً، بتراب الغرفة، حتى تيبستْ به.. نشيجُ أنّاته لم يكن بوسعه إفاقةَ الطفل من غيبوبته.

+هذا مخالف لمشيئة اللّه.

–أنا معك في هذا.

+ماذا نبغي!؟.. وهل نبغي شيئاً غير لقمة من الخبز، وجرعةٍ من الدواء تنقذ هذا الطفل من الهلاك؟!.

–صدقتِ.

+حتى الكلاب المنبثّة أمام باب الدار، قد تعثر على قطعة من العظام.. أمّا نحن فمحرومون حتى من ذلك.

–واسفاه.. لم نكن حتى كلاباً.

+ياإلهي، ياربّنا، رفقاً بنا.. إفتح علينا باباً للخلاص.. إبعث لنا قلباً رؤوفاً.

–في هذه اللحظة، ترى الالآف من أمثالنا يتضوّرون جوعاً.

+دعْ هذه العبارات الطنّانة.. حاول أنْ تفعل شيئاً.

–هذا صحيح!!.. يجب عليّ أن أفعل شيئاً ما.

+وماذا تفعل؟!.

–سوف أغدو كلباً.. أهاجم هذا، وأُهاجم ذاك.. ابحث عن عظمة.

+هل جُننت!؟.

–انْ لم يدفع الجوع بالانسان إلى الجنون، فأيُّ شيْ آخر غيره، ياتُرى يدفع به إليه؟.

+أترك هذه الأقوال جانباً.

–..لا..ولِمَ أغدو كلباً!؟.. لم لاأغدو لصّاً؟..

إنْ لم يكن هنالك من عمل، فما الذي في مقدوري أن أفعل؟.

+حاول أنْ تطرد هذه الأفكار من مخيّلتك..

ألاتدري أنّ إرتكاب السرقة إثم.. جناية!؟.

–انّ أسنان الجناية ليس بمقدورها أنْ تطال لحم الجوع بالعضّ.

+هل عدتَ ثانيةً!؟

–وهل ممنوع عليّ الكلام أيضاً؟!.

عينا طفله الزائغتان نصف المفتوحتين كانتا مغروزتين في صدر أمّه، وثدييها المتيبسين..

الآف المقل قد نبتتْ على جدران الغرفة.. كانت تحرقه كجذيٍّ من نار.

+ إلى أين؟!.

–إلى الخارج.. إلى حيث الناس.. إلى التفكير.

+كن رجلاً طيباً.

–دعني، وشأني.

فتح له الزقاق الضيّق ذراعيه ثانيةً..

غرق في زحام الشارع.

(٣)

اعتصر مخّك.. أمعن في التفكير، كي تعثر على منفذٍ للخلاص، وسط ه
الحشود من الناس، من ذوي القرون...

حاول ان تجد بُغيتكَ من النقود.. إبحث عن لقمة العيش.. احصل ع
قرشين.. أو حاول أن تجد مَنْ يُقرضك بعض المال.. أو...!

–ألا تصبغ حذاءك؟.

–إقتنِ بطاقةً، ولاتدع هذه الألوفات تضيع منك.

–لوجه اللّه.. فقط ثمن قرصة من الخبز.

ثمّة إمرأة برفقة طفل، كانا منطرحين على الرصيف، في حين بضعةٌ
العشرات، و(العانات) اليتيمة هي الأخرى كانت تلتمع بخفوت على الش
القذرة.

–حتى لو كانت (عانة) واحدة.. لوجه اللّه عانة واحدة فقط.

– دعني، وشأني.

سار ثانيةً على مقربة من الدكان.. أبصر عينين كعيني ثعبان.

–أيّها الحاج.. لقد فكّرتُ...

+إطرح التفكير جانباً يابنيّ.. خير لك أنْ تحاول الحصول على مبلغ زه
من المال، لتوفي به ماعليك من ديون.

–لم أكن لأفكرّ إلاّ في هذا.. لقد تذكرّتُ أحد معارفي...

+لايحكّ فروة رأسك غير ظفرك.

–ياعمّي الحاج، سوف أذهب إليه.. إنّه يملك ثروة طائلة.. تسيل من
قدميه.

+وماذا يعنيك أنت؟

–إنّه يعيش بمفرده.. ليس لديه، لاأطفال، ولاأقارب.

+بل لديه.. لكنّه يتنكرّ لهم.

–لا..لا.. إنّني صادق فيما أقول ياعمي الحاج..

إنّه وحيد، وليس لديه من أحد.

ا يفعل بقريب مثلك؟
ف أتوسل إليه، وألحّ، لعلّ قلبه يرقّ.
جمع المال لن يأتي عن طريق الشفقة.
ل الله أن يُدخل في قلبه الرحمة.. إنّني مابسطتُ له يدي بالسؤال يوماً

ي أن يكون كذلك.
ني ياعمي الحاج خدمته زهاء سنتين أو ثلاث، وبكلّ امانة،

ستاً فعلت.
أخنه أبداً.
ك تجده جامعاً لكلّ هذه الثروة الطائلة..
نت..!!..نعم استمر.
ـما تزوّجت، ومن ثمّ حصلت على عمل، تركت الخدمة عنده.

نعم.
نّي، ومنذ عدة شهور عاطل عن العمل.
تَ وحدك.
نّي مدين لك أيضاً.
تُ ناسياً هذا.
ا يكن المبلغ الذي يزوّدني به، فإنّك في المقدّمة.
سى أن يكون كذلك.
ز أيام. وأنا لم آخذ نفساً من سيجارة، أكاد...
تترك التدخين نهائياً، أفضل.
ن سيجارة الحاج ملأ أنفه، فامتصّ منه حدّ الارتواء.

(٤)

ب الخشبي كان مصنوعاً على طراز فاخر.. مساميره المقبّبة، كانت تبدو.
ثداء نافرة مثبتّة على واجهته.. تناهى إلى سمعه صوت جرسه الرهيف..
لباب ببطء.. غطّى عليه كرش عظيم متهدّل، ومن ثَمّ وبأندهاش
ه عينان غائمتان، من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.. ثمّة صوتٌ صلد
صكّ طبلتي أذنٍ مرهقة.
هذا أنت!! ماأتى بك هاهنا؟وكيف؟
يف صحتكم؟. وهل أنتم بخير؟

+أجل بخير.. لكنّك تبدو، وكأنّك هارب من المستشفى.
-بل أسوأ بكثير.
+ها!!..
-هل أستطيع الدخول؟
+حسناً.. لكنّني مشغول الآن.

+إذا كان كذلك يمكن.. تعالَ ، وادخلْ.
أحسّ بالخدر يسري تحت قدميه.. نيّستْ شفتاه، وكأنّما شربتا ماءاً مالحاً.
-لم أعثر على أحد سواك.
+ ماذا تريد؟!
-لقد أُصبتُ بنكبة فادحة.

+تتجلّى بوضوح على سيمائك.
-منذ شهرين، أو ثلاثة، وأنا عاطل..
طرقت كلّ باب، ولكن دون جدوى.
+أوَ ماتعلم، بأنّني ليستْ لي صلة بتشغيل العمال؟
-بلى أعلم.. فقط.. إذا..

+إذا.. ماذا؟!
-إنّ ولدي مريض، وهو بأمسّ الحاجة إلى دواء.. أنا إلى سقر .. لكنّما هو!..

+ولِمَ لاتبتاع له الدواء؟
-بماذا؟!.. هاي.. إنّ بطوننا لخاويةٌ، تقرقر من الجوع!.

+إذن لادعي لأنْ تشتري له.
-إن لم أشترِ له، فسوف يموت.
+ذلك أفضل.
-ماذا؟!

+أنْ يمت، وهو جائع خيرٌ له ممّا لو عاش طوال حياته، وهو يتضوّر جوعاً.. تعلمون حقّ العلم، بأنّكم لستم أهلاً لأعالة الأسرة، والأولاد، لكنّكم، وبكلّ غباوة لاتتورّعون عن انجاب كومة من الأطفال.

–هو الوحيد الذي عندي.
+كان ينبغي أن لايكون هو أيضاً.

–إنّ الله رزقنا به.. ولاحيلة فيه.
+إذن أطلب من اللّه له الشفاء، والرعاية. يرزقك اللّه.
–هذه أول مرّة، ألودّ فيها بك، لأطلب منك معروفاً.. فليكن ديناً!..
+فلتكن هي المرّة الأخيرة.. إذهب.. فليرزقك اللّه.

امتلأت أرجاء الغرفة بأبخرة من الغضب.. شواظ الحقد، والكراهية المنطلق من المحاجر، كان يذيب حدائد النوافذ.. بلاطات أرضية الغرفة أخذت تتراقص.. بدا لعينيه قفاه النحيل، وكأنه شاهدة قبر قديمة مخدوشة متآكلة.. كانتِ الحديدة المرميّة بجانب الباب قهقهه له،

وتناديه.. أبواب الغرف طفقتْ تفتح له مصاريعها.. أدراج الدواليب بدأت تنفتح من تلقاء نفسها.. النقود.. الذهب.. الدواء.. الحياة برمّتها.. كلّها كانت تنادي.

ارتفعت الحديدةُ الصلدة، فانهارتِ الشاهدة، وتدفّقتِ الدماء!!..
–ماذا فعلتُ!؟.

مسامير الصمت أخذت تدقّ في جسده.. شرعت الدماء المتدفّقة تشكّل جداول.. قميصه المضرّج بالدم، كان علامة من علامات يده الملطّخة بدم نسان. إذن فليبادر إلى خلع هذا القميص المدّمى فوراً.. فليرمِه بعيداً.. وليرتدِ يصا آخر نظيفاً يُخفي به آثار الجريمة... كان يسمع طنيناً لأُذنيه.. ماذا فعلت.. هربْ.. أهربْ.. أنجُ بجلدك.

ابتلعه صمت الشارع.

(٥)

الساقان الواهنتان كانتا تزحفان ببطء، واسترخاء على الأرض.. قطعة الجلد تيبّسة في فمه كانت هامدة.. بطنه الخاوي كان يتلوّى.. والهواء كان هو الآخر جشاً جوعاً.. بدا الناس لعينيه، وكأنهم يسيرون على رؤوسهم.. كان يردّ مع

نفسه: «لو كانتِ الأذنان نابتتين فوق الرأس، والعينان خلقه، فأيّ فارق كا من الممكن أن يكون فيما بين...» مهما حاول أن يكمّل، وأنْ يجد ذلك الفارق إلاّ أنّه لم يستطع.

كانت الأرض مطبقة شفتيها على شفاه أخمصيه، وكأنّها عاشقان قديمان

–ويحك!... تنحّ عن الطريق، قاتلك اللّه.

تنحّى عن الطريق قليلاً.. أبصر واحداً من رجال الدين.. من خلال تنحّ احسّن فجأة، وكأنّ لهباً من نار جهنّم قد داهمه.. اراد أنْ يلتفت كي يخ الرجل بما أحسّ به، لكنّه وجده وقد توارى في زحمة المارّة.

+ها!!.. وكأنّك واقف على حبل مشنقة!.
–..ها..!!.
+أقول.. وكأنّك واقف على حبل مشنقة.
–ياعمي الحاج، لقد صدر عنه صوت كالخوار..ولمرة واحدة فقط.
+هل أعطاك شيئاً ما؟!

–يالَهُ من خوار!!.
+وهل نطمح في شيء؟.. أم لا؟.
–قال: انّ الفقير اولى به أن يموت.
+كيف؟!
–يالَه من خوار!!.
+انّ الرجل، على مايبدو قد أُصيب بمسٍّ من الجنون!.

بوّابة المقبرة قد انفتحتْ على مصراعيها.. شرعت الحيطان الشبيهة بالكلاب تنبح عليه من جديد.. زوجته كانت تذرف قطراتٍ من دموعها في فم الطفل، لعلّ بها ملوحة، أو طعماً.. مدّ يده الواهنة المرتخية إلى قميصه.. لم يجد أثراً للدم.. رأى نفسه، وقد ارتدى قميصاً نظيفاً، غير أنّه فضفاض بعض الشيء.. لحظتئذٍ، تذكّر هويته، فتحقّق لديه أنّه قد تركها في جيب قميصه القديم الملطّخ بالدماء، والذي رماه هناك.. تصبّب عرقاً بارداً.. في حين كانت الحيطان تحملق فيه بعيون متوجسة.

الهامش

١–العانات: مفردها (عانة) أو (آنه).. قطعة نقدية معدنية بيضاء ثمنها أربعة فلوس كانت متداولة في العهد الملكي.

هذه القصّة منشورة في العدد (٩) من مجلّة (بەيان) لسنة ١٩٧٣.